

✽ الجماعة بين علم الاجتماع والفكر الإسلامي: دراسة تحليلية

**The group between sociology and Islamic thought:
An analytical study**

✽ أ.د. شافية صديق*

¹ جامعة الجزائر - 1، كلية العلوم الإسلامية، (الجزائر)

charifamoussa@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2019/07/15م

تاريخ الاستلام: 2019/02/02م

ملخص:

يهدف البحث إلى بيان مفهوم الجماعة وأسسها وتطبيقاتها ودورها الحضاري في إذكاء الروح المعنوية، وتحقيق الوحدة والتماسك والانسجام الاجتماعي والتواصل والابداع في مقابل النزعة الفردانية التي تنادي بها بعض الفلسفات، من خلال مقارنة بين مفهوم الجماعة عند علماء الاجتماع وعلى رأسهم دوركايم وغوستاف لبون... وبين رأي الفكر الإسلامي من خلال آراء الشاطبي وأبو زهرة وعبد المجيد النجار ومالك بن نبي وغيرهم. الكلمات المفتاحية: الجماعة، الانسجام الاجتماعي، النزعة الفردانية، علم الاجتماع، الفكر الإسلامي.

Abstract: The research aims to clarify the concept of the group, its foundations, applications, and its civilized role in raising morale, achieving unity, cohesion, social harmony, communication, and creativity in contrast to the individualism advocated by some philosophies, through an approach between the concept of group among sociologists, headed by Durkheim and Gustave Le Bon... and between The view of Islamic thought through the opinions of Al-Shatibi, Abu Zahra, Abdul-Majid Al-Najjar, Malik bin Nabi and others.

Keywords: group, social harmony, individualism, sociology, Islamic thought.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

صعب جدا أن يجد الباحث منفذا لموضوع تتقاسمه الدراسات التقليدية المتشابهة وفق نسق قار، والبحث في أسس الجماعة يجب أن يُختار له لصعوبته في الأعماق مقارنة اجتهدية لذلك تم اختيار هذه الإشكالية غير المألوفة الصعبة والقابلة للإثراء المستمر:

ما هي الحمولة العلمية لكلمة جماعة وماهي تطبيقاتها في العالم اليوم من منظور حضاري معرني، وكيف تناول المفكر المسلم البعد النفسي الاجتماعي لمفهوم الجماعة الشرعي ضمن البحث في المشكلة العويصة أهمية الجماعة فطرة وشرعا وغياب الوحدة بين المسلمين؟

صعب جدا تحسير البحث بين جزئي السؤال ولكن العزاء هي الاجتهاد للخروج من البحوث النمطية والأجر مضمون واحد أو أكثر بكرمه تعالى.

في المجال التداولي لعلوم الاجتماع والإنسان مصطلحات مفتاحية لها علاقة بالاجتهاد في تحقيق توازن أفراد المجتمع منها الذكاء الجمعي والذكاء المدني والذكاء التعاوني والمعتقد الديمقراطي .

المجتمعات الوفية لفطرتها عبر التاريخ كانت تبحث من خلال القائمين على مستقبلها على القيم التي تحقق للفرد تلبية حاجاته داخل مجتمعه، وتبحث عن القيم التي تحفز الفرد على استثمار مواهبه، وطاقاته من أجل صلاح مجتمعه، وذلك ضمن المعادلة البسيطة الكل من أجل الفرد والفرد من أجل الكل. ونفس القاعدة أودعها الله عز وجل في مخلوقاته الأخرى، ولكنها تقوم بما غريزيا وهذا لم يمنع الإنسان من الاستفادة من هذا المعطى الطبيعي، فها نحن نسمع اليوم أن الإنسان الذي أبدع في بناء الطرقات والمركبات، يقرر الاستفادة من حياة النمل لتنظيم حركة المرور وأهم ما يميز نظام النمل الانضباط الجماعي ألم يأت في القرآن الكريم في سورة النمل، الآية 18: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ أُدْخِلُوا مَسَاجِدَكُمْ لَا يُحِطِمَنَّكُمْ سُلَيْمُنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾

دراسة ديناميات الجماعات والتفاعلات الدقيقة للأفراد داخلها يسمح بتنمية رأسمالها الاجتماعي، الذي هو ركيزة الحراك الإيجابي المحقق للوحدة والانسجام والتوافق، والذي بدوهم لا يمكن لأي مجتمع تحقيق وجوده الإيجابي...



الكون بما يحمله يرسخ هذه الحقيقة، فلا يمكن مواجهة مختلف التحديات الطبيعية كالكوارث، والبشرية كانهراف بعض أفراد المجتمع وتهديدهم لاستقراره، إلا بالوحدة؛ فبعض الطيور المهاجرة مثلا المضطرة لقطع مسافات طويلة هربا من ظروف مناخية صعبة، تتبع تقنية من أجل تحسين التنقل الصعب عن طريق اقتصاد الطاقة المستهلكة، وذلك بالطيران الجماعي كسرب يشكل الحرف اللاتيني V مما يسمح بمد مسافة الطيران بحوالي 70 % وهي نفس الطريقة تقريبا التي يتبعها متسابقو الدراجات. ورغم أن السرعة تقل بالنسبة لكل طير منفردا، إلا أن أهم إيجابيات هذه الطريقة هي تحقيق الأمن وتوفير الطاقة وتعطينا درسا على أن الفرد يجب أن يسير وفق مصلحة المجموعة، وأن وحدة المجموعة هي في النهاية تحقيق لمصلحة الفرد.

في المجتمع المعاصر اليوم نزعة للفردانية طاغية توسع انتشارها وسائط الاتصال الجديدة، والعلماء يلاحقون هذه الظواهر المستجدة بالدراسة والتحليل، لاقتراح خطط ذكية تحترم التطور وخصوصيات الأفراد، وتقدم النظرة الاستراتيجية لحماية الكيان الاجتماعي. لقد اعترف الباحثون الغربيون بأن أهم سبل تحقيق ذلك هو تحديد المقاربات المنهجية منها على سبيل المثال ما أسماه:

Danilo MARTUCELLI

1. نحو (بالجمع) الفرد: grammaires de l individu

وذلك بتفعيل أساسيات العيش المشترك، الذي يحقق أمن الأفراد بدعم الأبعاد الأساسية للفرد في المجتمع الحديث، كالتكافل والدور والاحترام والشخصية والهوية الذاتية. المجتمع الحديث لا يفرض تقييد التفكير للمؤسسات العلمية فقط، بل السياسة الرشيدة تدرك من خلال حكمائها أن المجتمع الحي يفرض الحركة الدؤوبة في جميع مفاصله.

المجتمع الرأسمالي الغربي الذي بنيت فلسفته على مبادئ الحريات الفردية وحرية النشاط الاقتصادي، طورت عبر الأزمنة أنظمة لحماية المجتمع من تغول الأفراد وشطط الأنانية والفردانية، واستطاعت أن تحافظ على أمنها السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي بتفعيل آليات حماية الأفراد، دون المساس بالفلسفة التي قامت عليها الحضارة الغربية، فجاءت مصطلحات حمائية للضعفاء كالضامن والتأمين.

لاحظ مثلاً أن المجلس الأوروبي (conseil de l' europe) به هيئات بعنوانين:

استراتيجية التماسك الاجتماعي stratégie de cohesion sociale والإدارة العامة direction generale de la cohesion sociale للتماسك الاجتماعي
مثال: الاتحاد الأوروبي يعد مثالا حيا لمعاني الأمة الموحدة من أجل الصالح العام.

تعبير الانسجام الاجتماعي، دخل المجال التداولي السياسي كنقيض للثورة والاحتجاج والتمرد، وهي مذكورة في أدبيات مؤسسات الاتحاد الأوروبي (الاتحاد الأوروبي يفسر الانسجام الاجتماعي بقدرة المجتمع على ضمان الحياة الكريمة للأفراد بالحد من الفوارق وتفادي التهميش).

هذا الاجتهاد الاصطلاحي، جاء تنويجا لحراك فكري-اجتماعي في المجتمع الأوروبي، والقائمون على رسم استراتيجية الاتحاد الأوروبي، بنوه على أسس تغلبت على عوامل الانقسام والاختلاف والتنافس الشرس، وكل ذلك استنادا لدراسات عميقة بينت إيجابيات الاتحاد في محاربة ما يهدد الدول الأوربية إذا بقيت متفرقة، ولم يكن ذلك ممكنا في نظر الكثيرين لحدة الخلافات بين دول أوروبا التي عاشت حروبا مدمرة خصوصا في الثلاثين سنة من 1914 إلى 1945، ولكن بعض الدول الأوربية أيضا كانت معنية بالثلاثين سنة من الرفاه والتقدم من 1945 إلى 1973 (Trentes glorieuses). وثمره التقدم الأوروبي اليوم عزيز على الأوروبيين، إذ يكفي إزالة الحدود وتوحيد العملة فخرا لهم. التحالف الفكري -الاقتصادي -الاجتماعي لتحقيق انسجام الجماعة.



حقق هذا التحالف للأوروبيين على سبيل المثال تحصينا يصمد أمام الكوارث والطوارئ، وبني على تراث فكري متعدد التخصصات، كان على تماس مع مفاصل المجتمع في أدق التفاصيل ومطالعة النقاش الفكري المبني على تعدد الآراء وتناقضها، يفهم أن القوة الاقتصادية والأمن المتحقق ليسا سوى الجزء الظاهر من التجربة، أما الأسس القوية فهي العلم والفكر والقيم.

من نماذج اللبنتات الفكرية التي أسس عليها الصرح الأوربي، التركيز على القيم التي فطرت النفس البشرية عليها ومنها دور الروح المعنوية والحالة العاطفية الجماعية

(Group affective tone) لتحقيق التماسك الاجتماعي وتحسين التواصل وتحفيز الإبداع.

المجتمعات الحية تُفَعِّل نتائج الدراسات العلمية الجادة على أرض الواقع، وتستثمر الرأس مال المعرفي والبحثي في صناعة المستقبل؛ والمسلمون يملكون قيما واضحة في القرآن والسنة واجتهادات العلماء، لو استثمر لصَنَع للمسلمين واقعاً يفاخر به الرسول ﷺ بين الناس.

تتبع تاريخ مصطلح الانسجام الاجتماعي cohesion sociale كفيل بشرح جزء من المسألة.

كان أول استعمال له على يد عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم في كتابه عن التقسيم الاجتماعي للعمل de la division du travail في 1893، وكان المقصود به تماسك الجماعة وتعزيز شعور الانتماء، فكل تجمع يشترك في أهداف معينة تسهم في تكثيف الأواصر بين أفرادها، والذي يمكن قياس قوة تماسكه بالبحوث الميدانية التي تقيم درجة الرضى والإشباع النفسي الاجتماعي. فقد لوحظ أن الجماعات المنسجمة المتماسكة تحقق انجازات كبيرة لصالح كل الأفراد، إذا بنيت على أسس صحيحة.

مع تطور المجتمعات الصناعية خصوصا، لم يعد مفهوم التضامن التقليدي أساسيا في التنظيم السياسي بل أصبح مفهوم التماسك هو الأقدر على التعبير عن تحول الدولة من راع للتضامن الاجتماعي، إلى حارس لتحقيق ظروف التنافس الحر بين أفراد المجتمع مع الحرص على الحفاظ على الانسجام والتماسك الاجتماعيين.

الحمولة العامة لمفاهيم التوافق الاجتماعي تشجع على الاندماج والتمسك بالجماعة والمشاركة في الحياة الاجتماعية، وذلك من خلال اعتناق نفس القيم وقواعد السلوك من جميع الأفراد، ووجود الصراعات لا يعني غياب الانسجام.

انعقد ملتقى في 2005م تحت عنوان:

إعادة التفكير في التضامن Repenser la solidarité،

وبلغ عدد المساهمات خمسين مداخلة، طبعت في مؤلف قارب الألف صفحة تحت إدارة وإشراف: سارج بوغوم Serge PAUGAM⁽¹⁾، وهو عمل أقرب إلى المراجعات التقنية والتحيين، كتلك المتعلقة بمفهوم وواقع التضامن الأسري في عصر علاقات جديدة للأسرة (التأمين الصحي ومراكز المسنين المتطورة مثلاً)، وهناك دعوة قوية للتأمل والأسئلة المركزية حول ما يصنع أمن المجتمع بأوسع معانيه واستقراره وقوته.

في المقدمة يعرض "بوغام" المسار التاريخي لمفهوم ومصطلح التضامن (الذي استخدمه لأول مرة دوركايم) والأبعاد، والاستخدامات السياسية للمصطلح، ونظرية التضامن لـ "ليون بورجوا"، وإنشاء نظام التأمين الاجتماعي، وكيف أنه بعد الحرب العالمية الثانية بظروفها الكارثية، فرضت مراجعة سياسة دولة الرفاهية "état providence".

التحولات الاجتماعية وأزمة الأجراء الذين يتعرضون لشبه إقصاء لقلة الكفاءة والتخصص والخبرة، وبروز مشاكل عويصة كصراع الأجيال، والصراع بين الرجل والمرأة، ومشاكل التمييز والتفرقة، كل هذه المستجدات تترك أسس الحماية الاجتماعية، كما أسست بعيد الحرب العالمية، وأصبحت سياسة التضامن موزعة على اهتمامات تشكل مخاطر اجتماعية كالأزمات، وتغيرات محلية العائلة والشيخوخة، وكلها ممولة من الاشتراكات، وتدعم المكتبات الغربية بانتظام بالاجتهادات في نفس المنحى كما فعل جيرار مندل Gerard MENDEL فيما أسماه التحليل النفسي الاجتماعي أو علم اجتماع التحليل النفسي Sociopsychanalyse، وتقوم الفكرة المركزية لهذه المقاربة على نقد التحليل النفسي الذي يبعد الإحداثيات الاجتماعية عند الغوص في أعماق المريض.



2. الفرد والجماعة: الخلية والنسيج:

يركز الباحثون على ضرورة الانتباه لمخاطر الفكر الجماعي، بعد ملاحظة دقيقة للنقائص التي سُجّلت في مقارنة ديناميكيات الجماعات وتفاعلات الأفراد ضمن العلاقات الاجتماعية المؤطرة تحت مسميات الوحدة؛ فبعض الأفراد لا يجرؤون على التعبير عن آرائهم وعما يفكرون به، وأيضاً قد يتم تقبل رأي وواقع يشك الفرد في صلاحيته وصحته وقد يؤدي ذلك الرأي أو الواقع إلى كارثة.

النقاشات حول القرارات والاختيارات ونتائجها تكون أحياناً مبهمة وغامضة والتي لا تؤدي إلى أية نتائج حقيقية.

ومن النقائص أيضاً أن رأي الخبراء لا يعتد به وسط آراء الجماعة التي تخطئ بفعل جهلها بالأمور الدقيقة.

وفي المقابل هناك حالات يتقبل فيه أعضاء الجماعة أو المجموعة آراء الخبراء دون تفكير. ومن الملاحظات الهامة التي نبه لها الانتخاب الديمقراطي الذي قد يوصل ديكتاتورا إلى رأس هرم الحكم.

من النقائص أيضاً أن بعض ممثلين الجماعات المخول لها وضع المعايير والمقاييس المرجعية للسلوكات قد تفعل ذلك ضد مصلحة بعض الطبقات أو الفئات.⁽²⁾

وللتدقيق في ملاحظة العلاقة بين الفرد والجماعة لابد من تحديد معالم الجماعة من خلال التعريف الوظيفي.

بعض الدارسين يرى أن: "الجماعة في مفهومها المنطقي تصنيف لطائفة من الناس يشتركون معا في صفة أو صفات متعددة فهي بهذا المعنى فئة من فئات التصنيف، ومثال ذلك جماعة الأميين التي تقابلها جماعة المتعلمين، والجماعة في علم النفس الاجتماعي هي التي يتفاعل أفرادها مع بعضهم البعض في مواقف محددة، وما ينشأ عن هذا التفاعل في تلك المواقف من علاقات اجتماعية متبادلة، ويهتم علم النفس الاجتماعي المعاصر بالجماعة الصغيرة أكثر من اهتمامه بالجماعة الكبيرة، والجماعة الصغيرة كما يعرفها سميث وحدة تتكون من مجموعة قليلة من الأفراد الذين يتصفون بادراك اجتماعي مشترك أو متشابه وبأنهم يتخذون من البيئة المحيطة بهم موقفاً موحداً".⁽³⁾

هذا التعريف مفيد للعاملين في حقل البحوث الميدانية، وأحوج ما يكون للمسلمين لها للتشخيص الدقيق لآفاتنا.

وهناك ملاحظة من المتخصصين تفيد كثيرا في تفكيك منظومة الجماعات المسلحة وهي أن: "من الجماعات ما يتصف سلوك أفرادها بالجمود وهي لذلك لا تقبل أي انحراف مهما كان صغيرا عن الحدود التي توجه بها سلوك أفرادها، ومثل هذا النوع من الجماعات لا يستمر طويلا بل سرعان ما يضيق حتى يصبح مقصورا على عدد قليل من الأفراد، وقد يتحول إلى جماعات سرية أو تنظيمات إرهابية(ص63)".⁽⁴⁾

تصنيف الجماعات أيضا مسألة مهمة لقراءة الواقع الاجتماعي وتتبع حراكه:

أهم التقسيمات للجماعات هي:

أ- حجم الجماعة: الصغيرة والكبيرة:

ب- الموضوعية والذاتية: بالنسبة لموضوعية وذاتية العوامل المؤثرة في التجمع إلى أربعة:

1. وحدة العوامل الموضوعية: التفرقة القائمة بين الجماعات على أساس اختلاف البيئات الجغرافية واختلاف لون البشرة والفروق في العمر: من أمثلة التفرقة الجغرافية التفريق بين سكان الوجه البحري والقبلي في مصر وعن التفرقة على أساس لون البشرة التمييز بين الشعوب ذات البشرة البيضاء وتلك صاحبة البشرة السوداء.

والملاحظة الهامة هنا هي أن الوحدة الموضوعية لا تعني وحدة سيكولوجية .

2. وحدة المعايير الاجتماعية والاتجاهات: من أمثلتها التفرقة الاجتماعية بين أفراد حزب

سياسي وآخر.

3. تشابه السلوك ووحدة العمل: من أمثلة ذلك عمال المصنع الواحد.

4. الشعور المشترك بالتبعية: من أمثلة ذلك شعور الطالب بتبعيته لكليته حتى إذا تخرج .

ج- الجزئية والكلية:

1. الجزئية: انتساب الفرد إلى جماعات مختلفة.

2. الكلية: سيطرة إحدى الجماعات سيطرة مطلقة على جميع نواحي الفرد من الأمثلة جماعة

الفدائيين والتنظيمات السرية.



د-التقييد والحرية: مثال الجنود في خضوعهم للنظام العسكري والمتدينين وخضوعهم المطلق للطقوس والمتعصبين للأحزاب.

هـ- الثبات: من الأمثلة جماعة ثابتة كالأُسرة وجماعة غير ثابتة كالجمهرة وجماعة ثابتة نوعا ما كجماعة النادي أو الطائفة.

و-الداخلية والخارجية: الجماعة التي ينتمي إليها الفرد تسمى الداخلية والتي لا ينتمي إليها تسمى خارجية بالنسبة له. وغالبا ما تشعر مثل هذه الجماعة نحو الجماعة الخارجية بالخوف بل وبالغض. من الأمثلة تقسيم العبرانيين للناس بين شعبهم المختار وبقية الشعوب وتقسيم اليونانيين للأمم حسب إتقانهم للغة اليونانية تحضرا وبربرا.

يعني هذا أن لكل جماعة داخلية جماعة خارجية تقابلها فهناك من الجماعات أنواع لا تثير في الفرد نفورا أو ميلا وتسمى الجماعات المحايدة.

ز-الأولية والثانوية: ترتيب الجماعات في حياة الفرد الوثقى ثم الأولية ثم الوسطى ثم الثانوية. الوثقى من أمثلتها الأم وطفلها، والمحاربين بين الحياة والموت، والأولية: من أمثلتها الأسرة والجيران. والوسطى: مثل جماعة أحد الفصول في المدرسة الثانوية: مثل الهيئات العلمية والنقابات المهنية. ح-تعدد الجماعات التي ينتمي لها الفرد، تختلف من حيث النوع والمدى والحدة، وتلك الصفات مجتمعة تسمى علميا المشاركة الاجتماعية.⁽⁵⁾

هذه الشبكة من العلاقات التي تحيط بالإنسان تفرض على الدارسين خلال الأزمات البحث عن العلل فيها، فالإنسان ابن شبكة علاقاته.

نموذج تحليل دوركاهم مفتاحي خصوصا بربطه بظروفه التاريخية؛ يقول إميل دوركاهم أن هناك نوعان من التضامن الإيجابي، أحدهما هو حوصلة التشابكات والآخر يأتي من تقسيم العمل. هناك التضامن الميكانيكي وهناك التضامن العضوي، الأول يتغير بالسبب العكسي والثاني ينتج مباشرة عن الشخصية الفردية، الأول يرافقه القانون القمعي والثاني يرافقه القانون التعاوني.⁽⁶⁾

ملاحظات دوركاهم كانت في فترة تحولات عميقة في المجتمع الفرنسي، وعُرف عنه إجراء البحوث الميدانية، وبالتالي هو ينقل صورة عن مجتمعه وفق منهج وآليات وضعها مسبقا.

ويقول أيضا: "هناك مجتمعات يعود انسجامها إلى مجموعة المعتقدات والمشاعر والعواطف، ومن هذه المجتمعات تمخضت تلك التي يضمن تقسيم العمل وحدتها. إن تقسيم العمل الفيزيولوجي

لا يظهر إلا في المجتمعات متعددة الخلايا التي تملك نوعاً من الانسجام".⁽⁷⁾

ويضيف: "تقسيم العمل له تأثيره على الانسجام الاجتماعي فهو لا يجعل الأفراد متضامين فقط بلحد من نشاط كل واحد من الجماعة، ولكن لأن تقسيم العمل يزيد من نشاط الأفراد فهي تزيد في وحدة التنظيم وحياته".⁽⁸⁾

التحليل الفكري يربط بين ما تبتهد فيه المؤسسات الأكاديمية والمؤسسات السياسية وبين ما أنتجه رواد التخصص لأن العالم كالسياسي هما مرآة لواقعهم.

الإنسان نتاج نموذج اجتماعي ما، وعلماء النفس والاجتماع بينوا أن سلوك الإنسان الفرد داخل الجماعة يختلف عن سلوكه عندما يكون بمفرده.

علماء الاجتماع ببحوثهم الميدانية واجتهاداتهم النظرية، يؤكدون ما عرفته البشرية منذ جعل الله عز وجل لآدم شريكاً وأسرة، وترى بعض الاجتهادات أن أبناء آدم ولدوا بعد الخروج من الجنة لأن الأرض كانت تحتاج وفق النواميس الجديدة إلى كيانات اجتماعية. ومثلما تبين رواية الأديان السماوية حول الصراع بين أبناء آدم، ركزت العلوم الاجتماعية أيضاً على مظاهر الخلاف والصراع بين البشر، وجاءت الإشكالية العميقة بين حاجة الأفراد إلى بعضهم للإقامة على الأرض وبين بذور الصراع الساكنة في كينونة الأفراد. لا مفر من تمسك الأفراد بسبل الحياة المتوازنة.

يقول عبد الله الخريجي: "المجتمع ينمو ويتطور ويتقدم بقوة دفع هاتين الطائفتين: الطاقة الروحية والطاقة المادية، وتندرج تحت مفهوم الروحية المبادئ والقيم والخلق والمثل العليا، وتنطوي تحت مفهوم المادية جميع الوسائل الملموسة والمحسوسة في عالم المادة".⁽⁹⁾

ويحلل محمود عودة فكرة الصراع من منظور علمي:

"نظرية الصراع الاجتماعي Social Conflict Theory تستند على فكرة محورية مؤداها أن الصراع هو عنصر أساسي في كافة التنظيمات الاجتماعية. كان هناك دائماً علماء يدافعون عن هذه النظرية أبرزهم رايت ميلز Right Mills في خمسينات القرن العشرين في الولايات المتحدة و رالف ندرورف Dahrendorp و لويس كوزر Coser اللذان كانا يهدفان إلى إعادة توجيه اهتمام العلماء الاجتماعيين في الولايات المتحدة خاصة، إلى طبيعة ووظائف الصراع في الحياة الاجتماعية المعاصرة.

مع التركيز على أن الصراع يؤدي إلى التكامل الاجتماعي وليس إلى التفكك والتحول، نظرية الصراع تفترض أن الناس إما أن يكونوا في مراكز مسيطرة ومتحكمة أو أن يكونوا خاضعين وتابعين للآخرين، وهذا مصدر أساسي من مصادر الصراع الاجتماعي.⁽¹⁰⁾

يلاحظ التركيز على الاختلاف والصراع وهذا مرتبط بكون: "طبيعة المجتمع بالنسبة لأصحاب هذه النظرية هو نظام يقوم على أساس شكل من أشكال توازن القوى بين الجماعات والتنظيمات المتعارضة والمتصارعة".⁽¹¹⁾

ويمكن تلخيص الاتجاهات الرئيسية بأن:

هناك موقفان نظريان أساسيان في علم الاجتماع: رؤية تقليدية ترى المجتمع بوصفه كيانا متكاملا منظما منسجما يفضل بوجود قيم مشتركة تحفظ التضامن والتماسك بين الأفراد في المجتمع، ومن ثم لا مجال للصراع أو التغيير العنيف وإنما حالة التوازن الدينامي هي الحالة السوية العادية الطبيعية. وهناك الرؤية الراديكالية تنظر إلى المجتمع بوصفه كيانا يتسم بعدم الاستقرار والتغير من خلال الصراع بين المصالح والقوى الاجتماعية المتعارضة.⁽¹²⁾

المجتمع هو العلاقات التي تربط بين أفرادهِ وليس كتلة صماء لذلك درست العلاقات والتغيرات في حياة الأفراد باعتبارهم أساس المجتمع والانسجام والصراع صفتان لحياة قائمة تبدأ في التشكل منذ الطفولة فعلماء النفس الاجتماعي شخصياتنا تتطور خلال اتصالاتنا الاجتماعية بالآخرين ويتعلم الفرد كيف يصبح عضوا في أسرته وفي مجتمعه المحلي وفي جماعته القومية منذ الطفولة المبكرة، وتتقدم مع تقدم النمو والتعلم إلى الدرجة التي يسلك بها الفرد ويفكر ويشعر ويقيم الأمور بطرق تشبه ما يفعله كل فرد آخر في المجتمع.⁽¹³⁾

المجتمع الذي يختار بعض أعضائه الرفض المسلح للانسجام هم أبناء هذه الصيرورة، والمؤكد أن حلقة ما أدخلت بمهمتها.

وربطا بين التفاعل الداخلي للفرد وتفاعله مع الآخرين يضيف الباحثان: "التفاعل الاجتماعي هو العملية التي يؤثر بها الناس على بعضهم البعض من خلال التبادل المشترك للأفكار والمشاعر وردود الفعل".⁽¹⁴⁾

يعني أن الفرد يولد اجتماعيا بتضافر جهود مؤسسات التنشئة الاجتماعية ثم يتحول بنضجه إلى فاعل.

والتأثر والتأثير والأنشطة في الاتجاهين بين الفرد ونظرائه في الجماعة الكبرى دليل الحيوية والحياة، ومراقبتها يسمح برسم تخطيط الحياة الاجتماعية وقياسها على سلم الاستقرار المفضي إلى التقدم: يرتبط الناس في العلاقات الاجتماعية ببعضهم البعض داخل نظام اجتماعي أي أن نشاطاتهم تصبح متوقفة بعضها على بعض إلى حد أن أفعال شخص ما تحفز ردود أفعال وتوافقات شخص آخر... يتضح من خلال أمثلة البحث أن الداخلين في التفاعل يتوافقون مع سلوك بعضهم البعض وأن أعضاء الأنظمة الاجتماعية تكون لهم ردود فعل قوية تجاه أي شخص يهدد وجود الجماعة، وأن نمط التفاعل يتطور ويتغير بطريقة منظمة منهجية، وتتضح الطبيعة النظامية للعملية على مستويات التحليل الجزئي كما تتضح على مستويات التحليل الكتلبي.⁽¹⁵⁾

يتحول الفرد السوي إذن إلى مدافع عن جماعته الصغرى والكبرى أما إذا تحول إلى عكس ذلك فجيحش التحليل العلمي لابد أن يعرف بؤرة الفيروس القاتل الذي يهدد جسد الجماعة. يلاحظ أن "الجماعة" اصطلاح مركزي في معجم العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، من منظور علاقة الإنسان الفرد بمجموعة انتمائه الصغيرة والكبيرة باعتباره كائن اجتماعي. علم النفس الاجتماعي هو أحد فروع علم النفس وهو العلم الذي يدرس علاقة الفرد بمجتمعه، وبالتالي آلياته ومناهجه التي تطورت بفعل تراكم التجارب والتنظيرات، تستطيع تحليل الإشكاليات المرتبطة بتلك العلاقة من أجل بناء مجتمع متوازن كما يهتم بالأبعاد النفسية للجماعات، والفرد يتفاعل نفسيا ضمن شبكة من العلاقات الاجتماعية، وينتمي لجماعات مثل الأسرة والنادي الرياضي ودفعة الجامعة. ومع تطور الوسائط الاجتماعية أصبح بإمكانه الانتماء إلى جماعات افتراضية قد تنافس الجماعات الواقعية.

لذلك تعريف "غوردن البوت" لعلم النفس الاجتماعي مهم:

"الدراسة العلمية لكيفية تأثير أفكار ومشاعر وسلوك الأفراد بحضور الآخرين حضورا فعليا أو خياليا أو ضمنيا".⁽¹⁶⁾

ويكمل التعريف الوظيفي السابق قول:

"يقوم علم النفس الاجتماعي بدور هام في الشؤون الإنسانية عن طريق تطوير أساليب ومحاكات لاكتشاف حقيقة أفكارنا القائمة على أساس الفهم العام أو حتى أفكارنا الأكثر تعقيدا التي تتعلق بالسلوك المتبادل بين الأفراد، ولاختبار صدق هذه الأفكار".⁽¹⁷⁾



3. الجماعات كحشود: تحليل غوستاف لوبون:

يعيش العالم اليوم ظاهرة تكوين مجموعات كثيرة، تنتظم عبر وسائط غير تقليدية قد تفلت أحيانا من المتابعة الأمنية والعلمية، كالجريمة المنظمة، وشبكات تهريب المخدرات، وشبكات الإرهاب، تمويلا وتكوينًا وتوظيفًا، كما نلاحظ استخدام نفس الوسائط لحشد الأنصار والمتعاطفين من أجل حركة سياسية أو اجتماعية أو رياضية، من أجل الصالح العام أو لأجل أهداف إجرامية.

الخصائص العامة للحشود (foules) يتناولها لوبون تحت عنوان: "القانون البسيكولوجي لوحدها العقلية"، ويرى أنه من وجهة نظر علم النفس تجمع عدة أشخاص لا يشكل حشداً وأهم الخصائص العامة للحشود هي الاتجاه الثابت للأفكار والعواطف للأفراد الذين يكونون الحشد وغياب ومحو شخصياتهم. يسيطر اللاوعي واللاشعور دائماً على الحشد. إضافة إلى غياب الحياة العقلية الحقيقية، والتفكير السليم، وسيطرة تامة للحياة الغريزية.

ويلاحظ أيضاً: انخفاض مستوى الذكاء وتحول كامل للعواطف، والعواطف المتغيرة يمكن أن تكون أحسن أو أسوأ من عواطف الأفراد المكونين للحشد. الحشد يستطيع أن ينتج بطلاً أو مجرماً حيث تتساوى الحالات.

روح الحشود انفعالية تتحول إلى لعبة لكل المثيرات الخارجية وهي تعكس التحولات المستمرة.⁽¹⁹⁾

الحشود تستجيب للدوافع المثيرة، وتكون هذه الدوافع من القوة والتسلط ما يلغي المصالح الشخصية للأفراد. لا شيء محضر له مسبقاً عند الحشود، وما تتعرض له من إهانات وتلميحات تتحول من صور ذهنية إلى حقائق، ولذلك الصور هي نفسها عند كل الأفراد المكونين للحشد، يتساوى في ذلك العالم والغبي، الجميع يعيش نفس الأوهام، والدليل على ذلك أنه لا يمكن إعطاء أية مصداقية لشهادة الحشد المبنية على المبالغة والتبسيط في العواطف.

الحشود لا تعرف الشك ولا الريبة وتتجه دائماً إلى التطرف فعواطفها دائماً مبالغ فيها فهي غير متسامحة ومتسلطة ومحافضة، وعلى العموم الحشود تملك غريزة رفض التغيير والتطور.

أما عن أخلاقيات الحشود، فيمكن أن تكون أدنى أو أعلى من أخلاقيات الأفراد، وذلك حسب درجة التأثير والتلميح والإيهام.

يربط لوبون بين عواطف الحشود وبين المشاعر الدينية من منظور نفسي اجتماعي:

"قناعات الحشود ذات صبغة دينية: ما يمثل الشعور الديني هو منفصل عن عبادة إله حيث خصائصها قوة معتقداتها التي تأخذ الصبغة الدينية، والدليل أن الآلهة الشعبية لم تنقرض ولم تغب، بل هناك أشكالاً جديدة تُبعث فيها ومنها الأشكال الدينية للإلحاد. الإصلاح الديني ومذاهب القديس بارتليمي وكل الأحداث العنيفة والمذاهب المشابهة، هي نتاج المشاعر والعواطف الدينية للحشود وليس نتاج إرادة الأفراد المعزولين. إن الحشود لا تفكر ولا تحلل بل تقبل أو ترفض الأفكار ككتلة واحدة ولا تتحمل النقاش ولا الاعتراض وتؤثر فيها الإثارات والدوافع والمثيرات والتلميحات، وتطغى على إدراكها وتفكيرها، وتحولها بسرعة إلى أفعال على الأرض، بل إن الأفراد مستعدون للتضحية بأرواحهم من أجل الأفكار التي تبث فيهم، فالحشود أصلاً لا تعرف إلا الأفعال والسلوكات العنيفة والمتطرفة، وتتحول مشاعر التعاطف عندها بسرعة إلى عبادة، وبمجرد حصول عدم استلطاف يتحول بسرعة إلى عداًء وكرهية. وإذا حللنا عن قرب قناعات الحشود سواء في فترات الإيمان وفترات الأحداث والتحويلات السياسية الكبرى، نلاحظ أن هذه القناعات تكتسي دائماً طابعاً خاصاً يمكن إطلاق عليه الشعور الديني وهو ذو خصائص جد بسيطة:

عبادة كائن يفترض أنه متعالٍ، والخوف من القدرة والقوة الخارقة التي تنسب له، والخضوع الأعمى لتعليماته، واستحالة نقاش معتقداته، والرغبة في نشر تلك التعليمات، واعتبار كل من لا يقتنع بها ويتبعها أعداءً. مثل هذا الشعور، يضاف على إله غير مرئي أو على معبود من حجر أو خشب أو على بطل أو فكرة سياسية، وبالتالي مادام يحمل نفس الخصائص السابقة، فهو ذو ماهية دينية. المافوق الطبيعة والإعجازي موجودان في نفس الدرجة. لا شعورياً الحشود تضفي قوة خارقة وسرية على الصيغة السياسية أو القائد المنتصر ويتعصبون له.⁽²⁰⁾

يجب استحضار هذا عند تفكيك أسباب قدرة الجماعات المتطرفة على إلغاء عقول شباب من الأميين إلى ذوي التكوين الجامعي، وكيف يمكن استرجاع ضحايا هذه الجماعات إلى مجتمعاتهم وجماعاتهم: أسرة وجيرانا وإنسانية.⁽²¹⁾

يضيف لوبون: "الاقتناع الديني والشعور الديني لا ينسب فقط لمن يعبد إلهاً، ولكن عندما نضع كل قدرات العقل والروح وكل الخشوع والخضوع وكل حماس التعصب في خدمة قضية أو شخص، يتحول إلى هدف وقائد موجه ودليل لأفكاره وأفعاله. اللاتسامح والتعصب يشكّلان



متلازمين أساسيين للشعور الديني، وهما أساسيات بالنسبة لمن يعتقدون أنهم يملكون سر السعادة الأرضية والأبدية، وهاتان الصفتان نجدهما عند كل أفراد مجموعة تحركهم قناعة ما".

يعطي لوبون مثالا عن "اليعاقبة" في الثورة الفرنسية الذين كانوا متدينين مثلهم مثل كاثوليك محاكم التفتيش، ورغم ذلك، بشاعة وفضاعة ما ارتكبه من جرائم تأخذ شرعيتها من نفس المصدر.

الجماعات المسلحة اليوم التي تدعي الدفاع عن الدين، تتقاتل مع بعضها أكثر من تقاتلها مع عدوها المشترك، وبعض الإحصائيات تقول أن 80% من قتلى الجماعات الإسلامية المسلحة من المسلمين. وتذكر كيف تقاتلت الجماعات الإسلامية في أفغانستان بعد خروج السوفيات. يبين لوبون أن:

"معتقدات الحشود تكتسي خصائص الخضوع الأعمى واللاتسامح الشرس وبحاجة لدعاية عنيفة، وكل ذلك ينطبق على الشعور الديني، لذلك يمكن القول أن كل القناعات لها شكل ديني، فالبطل الذي تصرخ باسمه الحشود هو إله بالنسبة لها. نابليون كان كذلك مدة 15 سنة وكان يبعث الرجال للموت".

يستشهد الكاتب بدراسة تبين أن طول عمر الامبراطورية الرومانية يعود إلى تأليه حكامها، ويرى أن المسيطرين على أرواح الناس اليوم (نهاية القرن 19) لا يملكون مذابح تُقدَّم عليها القرابين كما كان يفعل الرومان تقديسا لحكامهم، ولكنهم يملكون الصور والتمائيل، وعبادتهم لا تختلف عن عبادة الحكام والقادة السابقين. ومن يفهم فلسفة التاريخ يدرك أن علم نفس الحشود يقتضي أن يكون الحكام والزعماء آلهة بالنسبة للحشود أو لا يكونوا شيئا.⁽²²⁾

4. الفكر الإسلامي والجماعة الراشدة:

شهد التاريخ الإسلامي مراحل هددت كيان الأمة: جماعات ضالة، فالقراطة خطفوا الحجر الأسود لمدة عشرين سنة، ولكننا اليوم لم نراكم بعد القراءة التفكيكية الشاملة لخطاب وممارسات الجماعات المسلحة. بعض البحوث السوسيولوجية والنفسية والقانونية تقارب الإشكالية، ولكنها تبقى جزئية، وليس مطلوب منها النظرة الفكرية الاستراتيجية التي تكون بعد امتلاك معطيات حقيقية وتفصيلية متعددة الجوانب، لذلك الفكر الإسلامي التقليدي أدى المهمة في التنبيه للأسباب والنتائج للفرقة في أزمنة أخرى، أما اليوم فإجرام الفرقة تغيرت عناصره.

الدوائر العلمية والاكاديمية اليوم مُسيطر عليها من النظريات والعلاجات الغربية المبنية على أفكار من مدارس متنوعة، ومشاكل المجتمعات الإسلامية اليوم المختلفة، لا تجد نظريات وممارسات علاجية دقيقة مستمدة من القرآن والسنة إلا بعد الاجتهادات الضيقة، فمن يعالج الإرهابي من خلله النفسي إذا لم يتكفل به متخصص واسع الأفق، ومن يتكفل بالمرتبك في عقيدته الذي تحول إلى مريض نفسي إذا لم يكن الطبيب المسلم المتحكم في تخصصه والمدرك لبعض زوايا تخصصه، المتعارضة مع صريح الدين كعلاج التعصب الديني بالانفتاح غير الأخلاقي.

الإسلام يحترم فطرة الإنسان ببعده الاجتماعي: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: 28)، ويربطه بأقرانه: "عليكم بالجماعة، فإن الله لن يجمع أمي إلا على هدى" (عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ).

والعمل التعبدي كالصلاة كما العمل من أجل حسن الاستخلاف، يكون مباركا عندما يؤدي جماعة، فصلاة الرجل في جماعة أفضل من صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة وفي هذه الدائرة تسمى العلاقة: الجماعة الصغرى. والدائرة الثانية هي الدائرة الكبرى: المجتمع المسلم والمجتمع الإنساني من منظور وحدة الخلق وعالمية الدعوة. وإذا كان الإسلام يحض على التمسك بالجماعة، فإنه ربطها بالتقوى والصلاح قطعاً لطريق التجمعات ذات الأهداف التخريبية.

يقول الشاطبي: "أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة" (الاعتصام) (23).

المعادلة الإسلامية هي إذن: التمسك بالجماعة باعتبار نوايس الخلق. لقد جعل الإسلام يد الله مع الجماعة.



صحيح البخاري كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا: "حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن أبي بردة قال: أخبرني جدي أبو بردة عن أبيه أبي موسى عن النبي ﷺ: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، ثم شبك بين أصابعه".

وفي باب رحمة الناس والبهائم: "حدثنا زكرياء عن عامر قال: سمعته يقول: سمعت النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله ﷺ: ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى".

ورغم هذا لم تكن الجماعة تأخذ شرعيتها من العدد أو التركيبة التفصيلية، ولكن من الحق كما نقل ذلك عبد الله بن مسعود في سنن الترمذي: "الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدا". قراءة المعادلة في ظل وسائط الاتصال الحديثة التي تجمع كيانات افتراضية من مشارب متنافرة وسرعة عمل الكيانات الضالة على الأرض مهم جدا، فقد يجد الإنسان نفسه لظروف ما يحاطا بتجمع ضال يذكر الله بما لا يتجاوز الحناجر ويحاصر بتأويل آيات وأحاديث، ولا ينقذه إلا استفتاء قلبه المخلص لفطرته.

الجماعة قد تضل إذا لم تتمسك بالعروة الوثقى، ويمكن أن يبتز عضو من جسد الإنسان إذا كان سببا في استئراء المرض القاتل، ويمكن أن تتسبب لبنة متأكلة في سقوط البنيان. الإسلام فطر الإنسان على نزعته الاجتماعية وتصدير المصلحة العامة على المصلحة الفردية، ولكنه حافظ على استقلالية التفكير للفرد وإبعاده عن عقلية التجميع غير الواعي: لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا.

5. نماذج من مقاربة الإشكالية في الفكر الاسلامي:

الفكر الإسلامي هو تفاعل العقل المسلم مع نصه المقدس المعصوم والكون المسخر له، وبالتالي هو اجتهاد ضمن رسالة الاستخلاف الموكلة له.

حمل العالم المسلم باعتباره مستثمرا إيجابيا لبنة العقل هم الأمة الإسلامية، وأدرك العالم المسلم بتفكيره وحسن تدبره أن الإنسان خلق في جماعة يعيش فيها ويعيش لها.

أبو إسحاق الشاطبي ابن القرن الثامن الهجري كتب كتابا محوريا مستلهما آية الاعتصام [آل عمران 103]: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول الشاطبي في مقدمة الاعتصام: "وهذه سنة الله في الخلق أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾" (يوسف 103)، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13). ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قتلهم، وذلك حين يصير المعروف منكرا والمنكر معروفا، وتصير السنة دعة والبدعة سنة، فيقام على أهل السنة بالثريب والتعنيف كما كان أولا يقام على أهل البدعة طمعا من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال. (24)

كانت الإشكالية المركزية لكتاب الاعتصام العودة إلى نقاء العقيدة، وتوحيد كلمة الأمة على الحق. وبين الشاطبي أن الفتنة وصلت إلى الاصطلاح، فالكل يدعي امتلاك الصواب الديني. يحصي الشاطبي تعريفات ومعاني كلمة الجماعة في خمسة أقوال:

- 1- أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام.
- 2- جماعة أئمة العلماء المجتهدين.
- 3- الجماعة هي الصحابة على الخصوص.
- 4- هي جماعة أهل الإسلام إذا اجتمعوا على أمر، فواجب على غيرهم من أهل الملل إتباعهم 5- ما اختاره الطبري من أن جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير فأمر عليه السلام بلزومه ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم. (25)



ويضيف الشاطبي حوصلة واستنتاجا: "وحاصل هذا أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة، وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة المذكورة في الأحاديث كالخوارج ومن جرى مجراهم".⁽²⁶⁾

الفتن التي عرفتها الأمة الإسلامية عبر التاريخ بينت أن أهم سبب في استفحالها هو تراجع مكانة العلماء الصادقين، لذلك يؤكد الشاطبي أن العلم الخالص لله كفيل بتحقيق رسالة المجتمع المسلم أو الجماعة بالمفهوم السني:

"الجميع اتفقوا على اعتبار أهل العلم والاجتهاد سواء ضموا إليهم العوام أم لا، فإن لم يضموا إليهم العوام فلا إشكال أن الاعتبار إنما هو بالسواد الأعظم من العلماء المعتبر اجتهدهم".⁽²⁷⁾

يصل الشاطبي إلى القاعدة الذهبية التي يعترف بها علماء الاجتماع عندما بينوا مساوئ عقلية الحشود التي لا تضبطها إلا عواطفها وبين تاريخ الأمم، أن الاعتبار يكون بالحق والحقيقة الذي تحددهما العقول الراجحة، وليس انفعالات مزاجية من أتباع كل ناعق: إذا ثبت أن الحق هو المعتبر دون الرجال، فالحق أيضا لا يُعرف دون وساطتهم، بل به يتوصل إليه وهم الأدلة على طريقته.

الشاطبي إذن يعرف الجماعة التي تستحق الانتساب للقرآن والسنة، ويبين أن العلماء هم البوصلة التي توجه سفينة المجتمع إلى ما يرضي الخالق.⁽²⁸⁾

قرأ ابن خلدون تاريخ الأمة الإسلامية من منظور علم العمران الذي يفكك الأحداث فلسفيا ولا يكتف بالسرد، وبين في مقدمته أن هناك سننا نفسية -اجتماعية تحرك التاريخ: يقول في الفصل الثامن المعنون: في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه". وذلك أن صلة الرحم طبيعية في البشر إلا في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القرى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداة عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، وهي نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا.

هذه المقاربة النفسية الاجتماعية لابن خلدون تبين سبقه في تتبع آليات التغير الاجتماعي، وهذه الملاحظة مهمة في قراءة التاريخ والاعتبار بأحداثه.

يضيف ابن خلدون في الفصل الخامس، في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها:

"والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم، لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالبوها إن كانوا أضعافهم، فأغراضهم متباينة بالباطل وتأخذهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه، وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام".

يربط ابن خلدون إذن نجاح الدعوة الدينية بقوة اللحمة الاجتماعية، وبالتالي يفسر نفسياً -اجتماعياً عوامل تحقيق روح الجماعة والوحدة التي تصنع التقدم والانتصار وتحقيق رسالة الإنسان على الأرض، فالدين يعصم الجماعة والمجتمع من إتباع الهوى، والجماعة تعطي لأتباع الدين حاجتهم من السند المعنوي والمادي وفاء لفطرة الإنسان التي تقرها كل الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة.

ويقدم ابن خلدون أفكاره السابقة بوضوح أكبر في الفصل السادس المعنون: في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم.

يقول ابن خلدون: "وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية، وفي الحديث الصحيح كما مر: "ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قوم"، وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية".

الرؤية الفلسفية للتاريخ التي اعتمدها ابن خلدون بينت أن النبوة وهي المدعمة من الوحي، تحتاج إلى اتباع السنن الأرضية التي خلقها الله في فطرة الإنسان: ألم يحم أبو طالب الكافر ابن أخيه النبي الرسول وفق قواعد الاجتماع القبلي، ألم يعترف الرسول عليه الصلاة والسلام بفضل عمه عليه؟

هي ذي القواعد التي تسير المجتمعات؛ البعد النفسي - الاجتماعي هو أساس الحراك الاجتماعي وبالتالي الوحدة شرط للتقدم بل للحياة.



الشيخ الدكتور محمد أبو زهرة من أعلام الفكر الإسلامي، فقد كان فقيها وقانونيا ومفكرا، كتب كتابا حول وحدة المسلمين ووحدة الجماعة الإسلامية بالمفهوم النبوي الشامل في وقت كان الاستعمار يمزق أوصال الأمة، لذلك جاءت صرامة تحليلاته واضحة.

يقول محمد أبو زهرة: "الوحدة الإسلامية حقيقة ثابتة بمقتضى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فلا يعرف الإسلام الفرقة بالألوان أو بالعناصر والأجناس أو باللغات والثقافات... كما هي مقررة في النصوص في عهد النبي ﷺ وعهد الراشدين".

"الآن صار المسلمون إلى افتراق وفي بعض الأحيان يكون بأسهم بينهم شديد، ووالى كثير منهم من لا يود للإسلام وأهله إلا خبال." (29)

يشخص أبو زهرة واقع المسلمين بخلفية الأمر الديني الذي يفرض الوحدة والتزام الجماعة الإسلامية الكبرى أي المجتمع.

يوافق أبو زهرة ابن خلدون، وتوافقه نظريات علم النفس الاجتماعي في كون الإنسان يملك نوازع الأنانية ودوافع الشر وإيثار المصلحة الشخصية، لكن التشبث الاجتماعية كفيلة بتنظيم أولويات الفرد وتهذيب شطط أنانيته:

يقول أبو زهرة: "إذا كانت كل النفوس متحدة في وجود المنازع، وأنها مستعدة للخير وللشر، فإنه لا محالة يترتب الاختلاف والتنازع بل التناحر، فمن الوحدة النفسية كان الاختلاف، ولقد قال تعالى: 'ونفس وما سواها' 'وهديناه النجدين' وهكذا يصرح القرآن بوحدة النفس الإنسانية في منازعها واتجاهاتها، وإنما التربية والبيئات الاجتماعية والتوجيهات هي التي توجد الاختلاف بين المجتمعات." (30)

التربية الحققة هي التي تحترم حاجات الفرد وتوجه طاقته نحو بناء الأمة، وإذا كانت التربية تستند إلى مصدر معصوم فلاشك أنها تحقق التوازن المنشود، وهذه عملية مستمرة ومتجددة، أما إذا كانت تستند إلى مصالح ضيقة فإنها تسقط في النهاية في أتون الضياع. لاحظ مثلا ما فعلته النازية في الشعب الألماني والعالم، ولاحظ ما تفعله الجماعات المارقة التي اختارت معاداة أمتهما من منظور قراءة ناقصة ومشوشة لتعاليم الدين. المتصدي لهذه الإشكالات عليه أن يستفيد من دروس التاريخ ومن تجارب الأمة فالأمة واحدة كما يقول أبو زهرة: "الإسلام لا يعد أهل جيل أمة واحدة بل يعد الأجيال كلها أمة واحدة".

عبد المجيد النجار، العالم التونسي، يقرأ الإشكالية من منظور الفكر الاستراتيجي مستفيدا من تراكم اجتهادات العلماء قديما وحديثا ومستفيدا من تاريخ الأمم. واختار المقاربة من مدخل حرية الفكر.

يقول عبد المجيد النجار(ص.24): "لما كان إبداء الرأي على هذا النحو من العموم في وجوبه على المسلمين، فإنه من البديهي أن يؤدي ذلك الامكان واسع للاختلاف بين الآراء حينما تتقاطع مسؤولية الرعاية في مساحة مشتركة، فمهما يكن المنطلق الشرعي موحدًا بين المسلمين إلا أن اختلاف المعطيات التي يبنى عليها الرأي تفضي إلى الاختلاف في التقدير في كثير من الأحيان. معادلة قد تبدو صعبة تنشأ بين هذين الطرفين: واجب إبداء الرأي الذي يفضي إلى الفرقة من جهة، وواجب الحفاظ على وحدة الأمة من جهة أخرى. ومما يزيد من صعوبة هذه المعادلة أن كل رأي يبديه المسلم يعتبر رأيا دينيا بمقتضى شمول الدين الإسلامي لجميع مناحي الحياة، وإذن فإن الاختلاف الذي يفضي إليه إبداء الرأي كواجب عام، سيكون اختلافا ذا صبغة دينية بالإضافة إلى كونه قد يكون عامل فرقة في الأمة.⁽³¹⁾

يشخص عبد المجيد النجار الإشكالية الناتجة عن طريقي معادلة صعبة: حرية الرأي كمبدأ أساسي فطر الله الإنسان عليها، وحصنتها الشريعة الإسلامية، وبين طرف تحقيق الوحدة الإسلامية جماعة ومجتمعاً، وهذا مقصد ديني عال وحاجة لكل البشر من واقع الفطرة أيضاً، وحرية الرأي هي دليل على إمكانية الاختلاف. وباعتبار المختلفين مسلمين متمسكين بإسلامهم فإن آراءهم تأخذ الصبغة الدينية عموماً.

ويرى عبد المجيد النجار أنه: نشأ في تاريخ الأمة الإسلامية منزع إلى حل هذه المعادلة على حساب طرفها الأول، فضيق من حرية إبداء الرأي تضيقاً شديداً إلى ما يقارب الإلغاء، في سبيل إن تسلم وحدة الأمة وتسلم وحدة الدين، وقد شمل هذا التضيق كلا من مساحتي المبدئي الرأي من المسلمين والقضايا التي يكون فيها إبداء الرأي، حتى انتهى إلى قيود فيهما تشدد وترتخي بحسب الظروف، إلى أن تراوحت بين ما يشبه المنع لحرية الرأي وبين حصره في مجال ضيق من الناس ومن المواضيع والقضايا.



إذن يرى عبد المجيد النجار أن في التاريخ الإسلامي تجارب في حل المعادلة على حساب حرية الرأي، حفاظا على وحدة الجماعة الإسلامية الكبرى، وهذه الملاحظة هي أقرب إلى تسجيل اجتهاد منها إلى ترسيخه وتكريسه.

المخرج الذي يراه عبد المجيد النجار يبدأ من إعادة تعريف الفكر الإسلامي فهو يرى:

تعريف الفكر الإسلامي:

"معنى الفكر الإسلامي: المنهج الذي يفكر به المسلمون أو الذي ينبغي أن يفكروا به، لا ما هو شائع اليوم من أنه المبادئ والتعاليم التي جاء بها الإسلام أو الرؤى والأفكار التي أثمرها المسلمون أو نحو ذلك مما هو من باب المحتوى من المعارف والعلوم".⁽³²⁾

لا جدال بالنسبة لعبد المجيد النجار من كون الحرية الفكرية مكفولة من الدين الإسلامي، بل هي من مقاصد الدين، ولكن الوحدة أيضا من أسباب بقاء الأمة الإسلامية، ولاشك بأن الوحدة الفكرية هي الأساس الذي تقوم عليه كل أشكال الوحدة والتآزر بين المسلمين.

يضيف عبد المجيد النجار: "الوحدة الفكرية لأية أمة هي الركن الأساسي لوحدتها الشاملة، ذلك لأن الآراء النظرية والعملية المنظمة للحياة، هي ثمرة للمنهج الذي ينتهجه العقل للوصول إليها، فكيفما يكون المنهج تكون النتيجة من تلك الآراء رشدا وضلالا".

وذلك ما يفسر إلحاح القرآن الكريم على توجيه العقل للنظر في آيات الكون المحسوسة كمنهج فكري، يفضي إلى الحق في معرفة الله وصفاته بصفة قطعية، وهو ما رتب عليه علماء العقيدة أن المنهج الصحيح في الفكر، يؤدي إلى معرفة الحق حتما.

ويخلص عبد المجيد النجار إلى أن: "الوحدة الفكرية للمسلمين هي اشتراك المسلمين في الأسس المنهجية الكبرى، للنظر العقلي في شؤون الكون والحياة، للوصول إلى الحقيقة التي يبنون عليها علاقتهم بالكون وينظمون بها شؤون الحياة، وكل ذلك في إطار من تعاليم الدين الذي جمعهم في أمة واحدة".⁽³³⁾

ويرسم النجار المسار لتحقيق ذلك المبدأ على أرض الواقع: "هذه الأركان المنهجية بقدر ما تكون شائعة بين المسلمين كسبل يمارسون عليها النظر العقلي، بقدر ما تتحقق بينهم الوحدة الفكرية التي تفضي إلى وحدتهم الشاملة، وبقدر ما يختلف المسلمون فيها فتتخذ كل فئة منهم

منها في النظر ذا صفات مخالفة لمناهج الآخرين، بقدر ما تكون بينهم الفرقة لما يؤدي إليه ذلك من اختلاف في الرؤى والحلول التي تقترح لتنظيم الحياة.

الاختلاف سنة من سنن الله في المخلوقات، والاختلاف ضمن الضوابط ثراء، ولكن الاختلاف المذموم هو ذلك المتمرد على أسس البنين المرصوص الذي ينخر في لبناته، ويزداد نهم سرطان الفرقة إذا تدخلت عوامل خارجية تحمل بذور المرض: مظاهر الفرقة التي أحدثتها مناهج التفكير المستوردة من ثقافات خارجية مثلما أحدثه فيهم المنهج اليوناني الصوري والمنهج الصوفي الاشراقي قديما، وما يحدثه اليوم المنهج الغربي ذو المنزع المادي الغالب.

الحل أمام الأفكار الوافدة هي قراءتها والاستفادة منها وفق ضوابط المنهج المحصن، فالحكمة ضالة المؤمن بمعنى أن إيمانه وإسلامه هو الذي يغربل وينتقي.

يتطرق عبد المجيد النجار إلى الموضوع المؤرق وهو الوحدة المذهبية فيفكك عناصرها بقوله: "الوحدة المذهبية درجتان: الأولى أن يتوحد المسلمون في مذهب واحد يكون منبثقا عن المذاهب كلها، وقائما بالأساس على الصلة المباشرة بنصوص الوحي من القرآن والحديث، والثانية أن يتقارب المسلمون في مذاهبهم، فيشتركون في أكبر قدر ممكن منها، ويتعاضدون في خصوصيات يبقى عليها كل صاحب مذهب، مع انتفاء مظاهر المشاحنة والتضارب، وإذا كانت الوحدة بالدرجة الأولى تبدو اليوم بعيدة المنال على مستوى المذهبية العقدية خصوصا، فإنها بالدرجة الثانية أمر ممكن قريب المنال، وهو إذا ما تحقق قد يكون طريقا إلى الوحدة من الدرجة الأولى.⁽³⁴⁾

المخرج الفكري الذي يقترحه عبد المجيد النجار للخروج من أزمة التفرق والتشتت المذهبيين، سبقه إليه علماء آخرون ضمن ما سمي التقريب بين المذاهب، وتحيينه اليوم ضروري مع الأزمة الخطيرة التي تعيشها الأمة بعيدا عن حكمة العلماء واستراتيجية الخبراء الأوفياء لدينهم.

يرى النجار أن نشأة المذاهب الإسلامية وتطورها يجب أن تقرأ ضمن سياق الفلسفة العامة للإسلام إذ يقول:

"المذاهب ليست في حقيقتها إلا وجوها مختلفة للتدين بالإسلام إيمانا عقديا وسلوكا شرعيا أنها اجتهادات في الكيفية التي يطبق بها الدين، تفاعلت فيها نصوص الوحي مع الأوضاع والظروف الواقعية التي كانت تجري عليها حياة المسلمين زمن نشوئها... ولكن الأتباع استصحبوها فيما بعد في مسيرة التاريخ الذي تغيرت فيه الظروف أطوارا.



لو قُرا التاريخ الفكري والسياسي للمسلمين بنفس المنهج، لاستطاع المسلمون تجاوز الكثير من مظاهر الفرقة التي تحولت إلى حروب يموت فيها المسلمون أكثر من الحروب التي تكون مع غير المسلمين، كما أن استثمار التجارب السابقة يبدأ بعدم تجرّعها في المطلق.

يقول النجار: "كان للمذهبية فضل في إثراء الاجتهاد وتوسيع التجربة الإسلامية في التدين، مما أفضى إلى مدونة عقدية وفقهية يعز نظيرها عند أية أمة، فهي من هذه الناحية أثرت مخزونا تراثيا ضخما لا غنى عنه لكل جيل من الأجيال الإسلامية اللاحقة، بل هو تراث بشري مشهود في النطاق الإنساني العام. إلا أنه ليس من مبرر معقول لأن يظل المسلمون اليوم على هذا الانتماء المذهبي الذي يبلغ من الشدة ما يوقعهم أحيانا في التضارب، من حيث إن وحدة الأمة مقصد ضروري من مقاصد الدين".⁽³⁵⁾

الفرقة بيندها الدين، والقراءة المقاصدية والمنهجية لأسبابها بروح تحشى الله، تسمح بالوصول إلى رؤية متوازنة. يقول عبد المجيد النجار عن التدين العقدي والاختلاف في المذاهب الاعتقادية: "المذاهب نشأت في ظروف معينة داخلية وخارجية، وفرضت تلك الأحداث والظروف قضايا معينة وأساليب معينة، أصبحت محاور أساسية للمذهبية فيها، منها العلاقة بين ذات الله وصفاته، وكلام الله بين القدم والحديث، وصفات الله الخيرية بين التأويل والتفويض، ورؤية الله بين الجواز والاستحالة. الظروف والمبررات التي اقتضت وجودها لم يعد لها وجود".

ويتساءل عن سبب استمرار التفرق رغم بعد أسبابه:

"فهل من مبرر إذا لأن يبقى المسلمون مشتتين بين مذاهب فقدت مبررات وجودها... ينبغي... إن تحرر العقول في التدين العقدي من هذا الأسر المذهبي".

الحلول المبنية على القراءة الشاملة تقدم على طاولة البناء الاستراتيجي، يراجعها أهل

الاختصاص ويفعلون جوانبها الإيجابية، ولذلك يقترح عبد المجيد النجار الحل ب:

"أن تتوجه بحريتها في النظر العقدي إلى مشاكل الواقع الراهن المتمثلة في التحديات الجديدة التي تستهدف العقيدة الإسلامية".⁽³⁶⁾

لا تنازل عن مقصد حرية الفكر ولا خوف على وحدة الأمة منها إذا التزمت بالمنهج الصحيح: يستخلص عبد المجيد النجار:

"حرية الرأي تعد بحق مدخلا مهما إلى الوحدة بين المسلمين، وذلك بما تحدثه في العقول من خصائص منهجية مشتركة، تتكون بالتلاقي والحوار والتبادل، فتنشأ من ذلك وحدة فكرية بالمعنى المنهجي تفضي إلى التقارب في التحليل والتعليل، والحكم ينتهي بالمسلمين إلى الوحدة في الأهداف والوحدة في طرق الانجاز للوصول إلى تلك الأهداف" (37) ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران: 104-105].

6. مالك بن نبي: الهندسة الاجتماعية:

كثف مالك بن نبي رؤيته لوحدة الجماعة الإسلامية في كتابه عن شبكة العلاقات الاجتماعية، وإن كانت كل كتبه تهدف لتحقيق حسن الاستخلاف كفرض عين على كل مسلم حسب قدراته.

يرى مالك بن نبي أن أهم خاصية الجماعة الإنسانية هي التغير: "كل جماعة لا تتطور ولا يعترها تغيير في حدود الزمن، تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة مجتمع" (38).

ويربط مالك بن نبي بين وحدة الجماعة في تركيبها وفي أهدافها إذ يضيف: "المجتمع هو الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغير. المجتمع ليس مجرد مجموعة من الأفراد بل هو تنظيم معين ذو طابع إنساني يتم طبقا لنظام معين. هذا النظام يقوم على عناصر ثلاثة:

حركة يتسم بها المجموع الإنساني

إنتاج لأسباب هذه الحركة

تحديد لأتجاهها" (39).

المجتمع إذن يعيش ويتقدم بوعي أفرادهم برسالتهم ودورهم:

أمام كل مجتمع غاية فهو يندفع في تقدمه إما إلى الحضارة وإما إلى الانهيار (40).



يتحدث مالك بن نبي عن وحدة الجماعة والمجتمع من خلال التركيز على آليات الدفاع الذاتي إذ يقول:

"معنى التحضر أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية، فإذا فهمنا هذا أدركنا في هذه الحالة قيمة نظام الدفاع الذي ينصبه مجتمع بطريقة غريزية حول شبكة علاقاته كما يحميها من أي مساس بها... جميع القوانين التي أملتتها السماء أو وضعتها محاولات البشر هي في حقيقة الأمر إجراءات دفاعية لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية، وبدونها لا تستطيع الحياة الإنسانية أن تستمر لا أخلاقيا ولا ماديا.⁽⁴¹⁾

شبكة العلاقات الاجتماعية هي التعبير التقني عن المجتمع والدفاع عنها هو حماية المجتمع من التشتت والتفرق ومن الضياع.

يرى مالك بن نبي أن البناء الفكري والثقافي هو القلعة الحامية للمجتمع وهو يتفق مع عبد المجيد النجار وغيره في ذلك:

"ليست الثقافة سوى تعلم الحضارة، أعني استخدام ملكاتنا الضميرية والعقلية في عالم الأشخاص، وليس العلم سوى بعض نتائج الحضارة أي أنه مجرد جهد تبذله عقولنا حين نستخدم في عالم الأشياء، فالأولى تحركتنا وتقحمنا كلية في موضوعها وأما الثاني فإنه يقحمنا في مجاله جزئيا والأولى تخلق علاقات بيننا وبين النظام الإنساني، والآخر يخلق علاقات بيننا وبين نظام الأشياء.⁽⁴²⁾

الفكر الهندسي لمالك بن نبي يجعله يحسم أمر التعامل مع البديهيات الفكرية في المجال الاجتماعي، التي منها أن الفرد هو أساس المجتمع، وإن توازنه الفكري والنفسي هو الذي يؤهله لتحقيق البناء الاجتماعي الصلب و تماسكا وتطويرا لآليات الدفاع عنه؛ يقول مالك بن نبي: "كل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي: الأشخاص والأفكار والأشياء هي حقيقة ميتة. تربية اجتماعية وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم. مجموعة القوى التي تغير شرائطها الوجود نحو الأحسن دائما وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ".⁽⁴³⁾

كُتب مالك بن نبي ثُبِين إدراكه للأزمات التي عرفها المجتمع المسلم على مر التاريخ، لذلك يقدم رؤيته المركزة على القاعدة الفكرية النفسية أي الثقافية للأفراد داخل مجتمعاتهم:

"الثقافة تحتوي بصفة عامة عددا من الفصول هي: الأخلاق والجمال والمنطق العملي والصناعة الفنية، ولكن الأمر يقتضي أن نتساءل كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد في ظروف نفسية زمنية معينة، أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية وفي مستوى أهداف الإنسانية".

الدكتور طه جابر العلواني يقدم اجتهاده من منظور التخصص الأصولي والمعرفي فهو بداية يتفق مع التشخيص الذي يرى التفرق آفة قاتلة بقوله:

"أخطر ما أصيبت به الأمة الإسلامية من أمراض، هو داء الاختلاف أو المخالفة، ذلك الداء المستفحل المتفشى الذي شمل كل حقل وكل مصر وكل مجتمع وضم في دائرته البغيضة النكدة الفكر والعقيدة، والتصور والرأي، والذوق والتصرف، والسلوك والخلق، والنمط الحياتي وطرائق التعامل، وأساليب الكلام والآمال، والأهداف والغايات البعيدة والقريبة، حتى خيم شبحة الأسود على نفوس الناس وكأن كل ما لدى هذه الأمة من أوامر ونواه وتعاليم يحثها على الاختلاف ويرغب بالتدابير والتناحر".⁽⁴⁴⁾

هذا التشخيص المؤلم الذي يختلف مع العلواني أحد إلا بقدر التركيز على مظهر من تلك المظاهر، يزداد خطورة وإنذارا بالمصيبة عندما نعلم كما يقول العلواني أن: "كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما حرصا على شيء بعد التوحيد حرصهما على تأكيد وحدة الأمة ونبذ الاختلاف بين أبنائها. مبادئ الإسلام ما نددت بشيء بعد الإشراف بالله تنديدها باختلاف الأمة وتنازعها".

كيف تفهم أسباب الأزمة بين تشتت وتفرق وانقسام على جميع الأصعدة في عوالم المسلمين، وبين أولوية الوحدة في تعاليم دينهم الواضحة الصريحة. يرى العلواني أن الإسلام ربط بين العقيدة والجماعة من خلال:

"الإسلام ما أكد على شيء مثل تأكيده على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، فالأولى تدعو إلى الإيمان بالله إيماناً نقياً خالياً من كل شائبة، والثانية انعكاس عملي تام للأولى".⁽⁴⁵⁾

المسلمون ابتعدوا عن أسباب وحدتهم، بل أكثر من ذلك عددوا سبل افتراقهم. يضيف العلواني:

"اتقنا فن المبارزة والمحاججة والخلاف، وافتقدنا آدابه وأخلاقياته فكان أن سقطنا فريسة سهلة للتاكل الداخلي. [الأنفال: 46] ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَنفَشِلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ❁

يقرأ العلواني بعض تفاصيل التاريخ الإسلامي من نفس الباب، ويتخذ القرآن شاهداً على المسلمين وهو يذكرهم⁽⁴⁶⁾ بأن: أهل الكتاب كان هلاكهم: لأنهم استخدموا العلم والمعرفة للبغي بينهم: [آل عمران: 19] ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ❁

يؤصل العلواني لأسباب الاختلاف ويقرأ طرفي معادلة أصالة الحرية وضرورة الوحدة بربطها بما وصل إليه العقل المسلم بشططه وأنانيته:

"الاختلاف في وجهات النظر وتقدير الأشياء والحكم عليها أمر فطري طبيعي، وله علاقة بالفروق الفردية إلى حد كبير إذ يستحيل بناء الحياة وقيام شبكة العلاقات الاجتماعية بين الناس ذوي القدرات المتساوية والنمطية المتطابقة." ⁽⁴⁷⁾

وصلت حدة الاختلاف إلى مرحلة أصبح المشرك معها يأمن على نفسه عند بعض الفرق الإسلامية التي ترى أنها على الحق المحض أكثر من المسلم المخالف لها بوجهة النظر والاجتهاد في مسائل فرعية جزئية، حيث أصبح لا سبيل معها للخلاص من الأذى والعذاب إلا بإظهار صفة الشرك. ⁽⁴⁸⁾

ويورد العلواني أمثلة من التاريخ على ما سبق ولاشك أن الراهن لا يختلف كثيراً، فالأمراض واحدة وإن اختلفت بعض أعراضها الخارجية.

يضع العلواني لائحة لتلك الأمراض فيذكر:

- الاختلاف الأهوج والهوى الغالب.
- اختفاء الأولويات.
- سهولة القول بغير علم.
- الفتوى بغير نور والعمل بغير دليل.

- انتشار التفسير والتكفير والاتهام.
 - السقوط في هاوية التعصب الأعمى.
 - لا يكاد الفارق للجماعة يرى إلا سودا وظلمة كالحية وما هي إلا انعكاس لنفسيته المظلمة ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.
 - انقلاب الآراء الاجتهادية والمدارس الفقهية التي محلها النظر والاجتهاد على أيدي المقلدين العوام إلى ضرب من التحزب الفكري والتعصب السياسي، تؤول الآيات والأحاديث وفقا لنهجها وتلوى أعناقها.
- وينبه العلواني من خلال قراءة التاريخ أن:
- "اختلف السلف الصالح ولكن اختلافهم في الرأي لم يكن سببا لافتراقهم؛ إثم اختلفوا لكنهم لم يتفرقوا.⁽⁴⁹⁾

ومن خلفيته الأصولية يرى العلواني أن اليوم هناك:

مظاهر التوحد والدعوة إليه والانتصار له، إنما هي عبارة عن مخادعة للنفس ومظاهر خارجية قد لا تختلف فيها كثيرا: [الأنعام: 120]: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٣﴾ وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

يقدم العلواني القاعدة الذهبية في التعامل المخلص مع مثل هذه القضايا وهي: "وذروا ظاهر الإثم وباطنه".

ويقدم حوصلة لحفرياتة المعرفية الأصولية والفكرية للتاريخ الفكري للمسلمين من خلال النتائج التالية:

- كثيرا من الأصول التي نسبت إلى الأئمة المتبوعين، هي أصول مخرجة على أقوالهم لا تصح بها الروايات عنهم، فالتشبيث بها والدفاع عنها وتكلف إيراد الاعتراضات والإجابات عنها، والرد على ما يخالفها والانشغال بكل ذلك عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ذلك كله من إبرز دواعي الاختلاف السيء الذي لم يهدف إليه الأئمة أنفسهم رحمهم الله، وقد أبعد هذا المتأخرين من المسلمين عن معالي الأمور وشغلهم بسفاسفها حتى دنت الأمة إلى ذلك الدرك الهابط الذي تتمرغ فيه اليوم.⁽⁵⁰⁾



● قد يصيب الفقيه حكم الشارع أو يوافقه وقد لا يوافق ذلك، ولكنه في الحالتين غير مطالب بأكثر من أن يبذل أقصى طاقته العقلية والذهنية للوصول إلى حكم، فإن لم يكن ما وصل إليه حكم الشارع فهو أقرب ما يكون إليه في حقيقته وغاياته وأثاره، ولذلك كان الاختلاف أمراً مشروعاً وذلك لتوفر أمرين فيه:

- لكل من المختلفين دليل يصح الاحتجاج به.

- إلا يؤدي الأخذ بالمذهب المخالف إلى محال أو باطل.⁽⁵¹⁾

وبهذين الأمرين يغاير الاختلاف الخلاف.

● معظم القضايا الفقهية وكثير من المسائل الأصولية، ليست إلا أموراً افتراضية ولدتها المناظرات والمجادلات والقضايا الخلافية.⁽⁵²⁾

● تحول الفقه من وسيلة لضبط حياة الناس ووقائعها بضوابط الشريعة إلى وسيلة لتبرير الواقع المطلوب.⁽⁵³⁾

● ادعى إمام الحرمين انعقاد إجماع المحققين على منع تقليد أعيان الصحابة بل عليهم أن يتبعوا مذاهب الأئمة الذي سبروا ونظروا وبوبوا الأبواب وذكروا أوضاع المسائل وتعرضوا لمذاهب الأولين، ثم أكد ذلك وخلص إلى ذلك الحكم الغريب بكون العامي مأموراً باتباع مذاهب السابرين، وبني ابن صلاح دعواه بوجوب تقليد الأئمة الأربعة لانضباط مذاهبهم وتدوينها وتحرير شروطها ونحو ذلك مما لم يتوفر لمذاهب سواهم من الصحابة والتابعين وتناقله عنه المتأخرون، ومن هنا بدأ إهمال الناس للكتاب الكريم وعلومه، وإعراضهم عن السنة وفنونها وقنعوا من العلم بنقل الأقوال والمذاهب.⁽⁵⁴⁾

● علماء السلف كثيراً ما يفعلون المفضول ويتركون الأفضل منه مراعاة للائتلاف وخروجاً من الخلاف، وقد يتركون المندوب في نظرهم ويفعلون الجائز تحقيقاً لذلك.⁽⁵⁵⁾

● لولا تفاوت مراتب العبادات والطاعات، لما تباينت درجات المؤمنين في الجنة، فطاقات الناس مختلفة وقدراتهم متباينة وكل ميسر لما خلق له.⁽⁵⁶⁾

● إثارة أي اختلاف بين المسلمين أو تنمية أسبابه أو تجاوز آدابه خيانة عظمى لأهداف الأمة وجريمة كبرى في حقها لا يمكن تبريرها أو الاعتذار عنها بحال.⁽⁵⁷⁾

هذه القراءة التفصيلية لازمة الفكرية -الأصولية-النفسية -الاجتماعية. هي أيضا من الخطط التي يمكن وضعها على طاولة الحكماء والاستراتيجيين الأوفياء لعقيدتهم للتأسيس لما أسماه الشيخ محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين.

"لا يختلف الشيخ الغزالي عن العلواني في التوقف عند أهم الأوبة التي كانت تنخر أسس الجماعة الإسلامية الواسعة".

"قد أعطي نفسي الحق في مخالفة أي فكر ديني سابق أو لاحق، ولكني لا أعطيها أبدا حق الشذوذ والخروج على الإجماع، إنني أوتر السير مع الجماعة الكبرى وأحب وحدة الصف والهدف، وأرى أن الفرقة هزيمة وعذاب وشؤم، وأرفض أن تكون القضايا الصغرى سببا في تنافر الأفتدة، وأوصي أن نتشبث بمعاقدة الدين وعراه الوثقى". (58)

وهذا ما يتفق أيضا مع نداء تحمله كل الأنفس الأبية من أجل صناعة: منهج لأصول الفكر لاستنباط قضايا الفكر وقضايا البناء الحضاري والنهضة من الكتاب والسنة. (59)

خاتمة:

وضع الله في فطرة الإنسان النزعة الاجتماعية التي تيسر له الحياة على الأرض، وربط نجاحه في استثمارها بوفائه لعهد مع الله وهو في ظهر آدم. الانحرافات التي تشهدها المجتمعات الإسلامية بحاجة إلى حسم السياسي وحلم الطبيب وتأمل العالم وجهد الباحثين، كل ذلك بإخلاص لرسالة للإنسان.



¹Danilo Martuccelli français de singly , les sociologies de l'individu ,paris ,armand colin ,2011

Repenser la solidarité .l apport des sciences sociales ,PUF ,,première edition 2007.

² Christian MOREL :prend-on de meilleures decisions à plusieurs.revue sciences humaines numero 169-mars2006.dossier sur :l intelligence collective.

ينظر أيضا الموقع الرسمي للمؤلف، <http://christian.morel5.perso.sfr.fr/>.

³ علم النفس الاجتماعي رؤية معاصرة، فؤاد البهي السيد، سعد عبد الرحمان، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999/1419، ص62

⁴ نفسه ص63.

⁵ نفسه من ص64 إلى 71.

⁶<http://classiques.uqac.ca/classiques.université.quebec.chicoutimi.>: Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay, Émile Durkheim (1893)

DE LA DIVISION DU TRAVAIL SOCIAL livre1. p.6

⁷ Émile Durkheim (1893), De la division du travail social : livres II et III .p.47.

⁸ op.cit.p.134

⁹ علم الاجتماع الديني، عبد الله الخريجي، ط2، السعودية، 1410هـ، سلسلة دراسات في المجتمع العربي السعودي، الكتاب التاسع، ص.455.

¹⁰ ،سس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت، ص106 وص107 .

¹¹ المرجع نفسه، ص109

¹² المرجع نفسه: ص112 و 113 .

¹³ علم النفس الاجتماعي: وليم و.لامبرت و ولاس أ.لامبرت، ترجمة سلوى الملا، مراجعة محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط2، 1993م، ص27

¹⁴ المرجع نفسه، ص187

¹⁵ المرجع نفسه، ص179

¹⁶ G.W.ALLPORT,1954 :la psychologie sociale consiste à essayer de comprendre et d'expliquer comment les pensées ,sentiments et comportements des individus sont influencé par la présence imaginaire ,implicite ou explicitedes autres

¹⁷ علم النفس الاجتماعي: وليم و.لامبرت، ص18

¹⁸Gustave Le Bon (1895) :psychologie des foules Édition Félix Alcan, 9^e édition, 1905.

Les classiques des sciences sociales.p20

http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html

¹⁹ op.cit.p25

²⁰ op.cit.pp46-49

²¹ op.cit.p49.

²² op.cit.p50. 17

²³ لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي 775/2، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط.1، 1412هـ-1992م.

²⁴ كتاب الاعتصام، الشاطبي، ضبط وتقديم وتخرّيج أحاديث: أبو عبدة مشهور آل سليمان، مج.3، مكتبة التوحيد، 12/1 و13 .

²⁵ المجلد الثالث من ص300 إلى 311.

²⁶ نفسه، ص311.

²⁷ نفسه، ص312.

²⁸ نفسه، ص474.



²⁹ الوحدة الإسلامية محمد ابو زهرة دار الرائد العربي بيروت، ص11.

³⁰ نفسه ص16

³¹ عبد المجيد النجار: دور حرية الراي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، 1992، ص24.

³² نفسه ص29

³³ نفسه ص30.

³⁴ نفسه، ص79

³⁵ -نفسه، ص80

³⁶ -نفسه ص81

³⁷ نفسه ص86

³⁸ ميلاد مجتمع مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين ط3/1986 دار الفكر دمشق، ص16.

³⁹ نفسه ص17

⁴⁰ نفسه ص18.

⁴¹ نفسه ص94.

⁴² نفسه ص96.

⁴³ نفسه ص100.

⁴⁴ أدب الاختلاف في الاسلام، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، 1992، ص8

⁴⁵ نفسه، ص9

⁴⁶ نفسه ص10

⁴⁷ نفسه ص11

⁴⁸ نفسه ص13

⁴⁹ نفسه ص14

⁵⁰ نفسه ص99

⁵¹ نفسه ص104

⁵² نفسه ص140

⁵³ نفسه ص144

⁵⁴ نفسه ص145

⁵⁵ نفسه ص162

⁵⁶ نفسه ص164

⁵⁷ نفسه ص166

⁵⁸ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الشروق، 1997، ص184.

⁵⁹ عبد الرحمان الزيندي: عبد الرحمان الزيندي: ضمن ورقة عمل في مؤتمر جامعة الشارقة الطلاي الخامس بعنوان: نحو جيل قيادي مشكلة المجتمع، والأمة الإسلامية اليوم هي مشكلة فكرية فلا بد أن تقوم جهود جبارة لصناعة، 1432هـ.



قائمة المصادر والمراجع:

- أدب الاختلاف في الإسلام، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992
- أسس علم الاجتماع، محمود عودة، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت.)
- دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، عبد المجيد النجار، المعهد العالي للفكر الإسلامي، 1992
- علم الاجتماع الديني، عبد الله الخريجي، ط2، السعودية، 1410هـ، سلسلة دراسات في المجتمع العربي السعودي، الكتاب التاسع.
- علم النفس الاجتماعي: رؤية معاصرة، فؤاد البهي السيد، سعد عبد الرحمان، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999/1419
- علم النفس الاجتماعي: وليم و. لامبرت و. ولاس أ. لامبرت، ترجمة سلوى الملا، مراجعة محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، مصر، (د.ت.)
- الاعتصام، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، ضبط وتقديم وتخرير أحاديث: أبو عبيدة مشهور آل سليمان، مج.3، مكتبة التوحيد، 12/1 و13
- الاعتصام، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي 775/2، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط.1، 1412هـ-1992م.
- ميلاد مجتمع: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط3، دمشق: دار الفكر، 1986
- الوحدة الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الرائد العربي، بيروت، (د.ت.)
- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الشروق، 1997
- عبد الرحمان الزبيدي: ضمن ورقة عمل في مؤتمر جامعة الشارقة الطلابي الخامس بعنوان: نحو جيل قيادي مشكلة المجتمع والأمة الإسلامية اليوم هي مشكلة فكرية فلا بد أن تقوم جهود جبارة لصناعة، 1432هـ.

Christian MOREL :prend-on de meilleures décisions à plusieurs. revue sciences humaines numéro 169-mars2006.dossier sur : l'intelligence collective.

Danilo Martuccelli François de singly, les sociologies de l'individu, paris, Armand colin ,2011

DE LA DIVISION DU TRAVAIL SOCIAL livre1. p.6

Émile Durkheim (1893), De la division du travail social : livres II et III

G.W.ALLPORT ,1954 :la psychologie sociale consiste à essayer de comprendre et d'expliquer comment les pensées,sentiments et comportements des individus sont influencé par la présence imaginaire ,implicite ou explicite des autres

Gustave Le Bon (1895): psychologie des foules Édition Félix Alcan, 9^e édition, 1905 .



http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html

<http://classiques.uqac.ca/classiques>. université Québec Chicoutimi.: Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay, Émile Durkheim (1893)

Repenser la solidarité .l'apport des sciences sociales, PUF ., première édition 2007.